وظيفة الرسل عليهم السلام

(من رسالة التوحيد)

« تبين مما تقدم في حاجة العالم الانساني الى الرسل انهم من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص وان بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل مالا مس الحس منها فالقصد منه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة او تقويم ملكاتها او إبداءها ما فيه سعادتها في الحياتين . اما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما اعدّ للوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الاّ من وجه الموعظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير ان شرط ذلك كله ان لا يحدث ريباً في الاعتقاد بان للكون الهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً متصفاً بما أوجب الدليل ان يتصف به وباستواء نسبة الكائنات اليه في انها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال . وشرطه ان لا ينال شيء من تلك الاعمال السابقة أحداً من الناس بشرٍّ في نفسه أو عرضه او ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ما حدّد في شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب ان يعرف من صفاته ويبينون الحد الذي يجب ان يقف عنده في طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة

الخلق على اله واحد لا فرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرةً لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوي ماضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

«يبينون للناس ما اختلفت فيه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون في تلك المخاصمات بامر الله الصادع ويؤيدون ما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة ، يعودون بالناس الى الالفة ، ويكشفون لهم سر المحبة، ويستلفتونهم الى ان فيها انتظام شمل الجماعة، ويفرضون عليهم مجاهدة انفسهم ليستوطنوها قلوبهم ويشعروها اشدتهم . يعلمونهم لذلك ان يرعى كل حق الآخر وان كان لا يفضل حقه وان لا يتجاوز في الطلب حده وان يعين قويهم ضعيفهم ويمد غنيهم فقيرهم ويهدي راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم ان يردوا اليها اعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذي تهدر له، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذي يبيح تناوله ، واحترام الاعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع . ويشرعون لهم مع ذلك ان يقوموا انفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود ، والرحمة بالضعفاء، والاقدام على نصيحة الاقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء، يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، الى طلب الرغائب السامية ، آخذين في ذلك

كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما امرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك للناس مايؤهلهم لرضاء الله عنهم ومايرضيهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محاظيره ، يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويتعصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الاجر ، وارضاء لمن بيده الامر ، وبهذا يحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم

ليس من وظائف الرسل ماهو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ ولا تفصيل مايحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ماتحتاج اليه النباتات في نموها ، ولا ما تفتقر اليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت في الوصول الى دقائقه الفهوم ، فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك يزيد في سعادة المحصلين ، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين ، ولكن كانت سنة الله في ذلك ان يتبع طريقة التدرج في الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعي فيه ومايكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

«أما ما ورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا في احوال الافلاك او هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من حكمة مبدعة او توجيه الفكر الى الغوص لادراك اسراره وبدائعه . وحالهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة اممهم لا يجوز ان تكون فوق ما يفهمون والإضاءات المحكمة في ارسالهم ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة، وهذا القسم اقلّ ما ورد في كلامهم

«على كل حال لا يجوز ان يقام الدين حاجزاً بين الارواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان . بل يجب ان يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضا عليها ان تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجني عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

اعتراض مشهور

«قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا الشقياء عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعد للوثبة، ولا ينتظر الا مجيء النوبة، حشو جلودهم

الظلم، وملء قلوبهم الطمع، عد كل ذوي دين دينهم حجة للمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تتشق عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه وتتفارق عقولهم في عقائدهم ويثور بينهم غبار الشر، وتتشبث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم، ويخربون ديارهم، الى ان يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين. فما هو الدين الذي تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة، كان سبباً في الشقاق ومضرما للضغينة، فما هذه الدعوى وما هذا الاثر ؟؟

« نقول في جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين في ايدي من لا يفهمه او يفهمه ويغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقولهم عن تصريفه تصريف الانبياء انفسهم او الخيرة من تبعتهم، والا فقل لنا أي نبي لم يأت امته بالخير الجم، والفيض الاعم، ولم يكن دينه وافيا بجميع ما تمس اليه حاجتها، في افرادها وجملتها

«أظن انك لا تخالفنا في ان الجمهور الاعظم من الناس (بل الكل الا قليلاً) لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو، بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن ان يأتي بها معبر لما أدركوا منها الا خيالاً لا أثر له في تقويم النفس ولا في اصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظاً بينها في تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها فأي الطرق أقرب اليك في مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال في رغائبها؟؟

«ومن البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب في بيان مضار الاسراف في الرغب وفوائد القصد في الطلب وما يجري نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطاويل النظر وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتي اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القدر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذي وهبه ما وهب، الغالب عليه في أدنى شؤونه المحيط بما في نفسه، الآخذ بأزمة همه، وتسوق اليه من الامثال في ذلك ما يقرب الى فهمه . ثم تروي له ما جاء في الدين المعتقد به من مواعظ وعبر، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة، وتعش روحه بذكر رضا الله عنه اذا استقام وسخطه عليه اذا تقحم، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين، ويستخذي الغضب، وتخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا انه يرضي الله وأولياءه اذا أطاع ويسخطهم اذا عصى ، ذلك هو المشهور من حال البشر غابرهم وحاضرهم، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم ، كم سمعنا ان عيوناً بكت، وزفرات صعدت ، وقلوباً خشعت، لواعظ الدين ، لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الادب وزعماء السياسة ، متى سمعنا ان طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم وينفي الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر ولا ينطبق على فطرهم وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للامرين الا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم

«قلنا ان منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص

أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك بل نصعد به الى مافوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ، ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردى في هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه ، يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج أو عناد ، وقد يقوم من العقل والحس الف دليل على مضرة شيء ويعلم ذلك الباغي في رأيه من اهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج او نحوها ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس او العقل فيما خلق لاجله ، كذلك الرسل عليهم السلام اعلام هداية نصبها الله على طريق النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط في فهمها وانحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء ، فالدين هاد والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ، ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه « يضل به كثيرا ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين » ألا ان الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس الى احكام السنن العامة في الكون ، وبه ينظر الانسان الى من فوقه في العلم والفضيلة ، والى من دونه في المال والجاه ، اتباعاً لما وردت به الاوامر الالهية ، الدين أشبه شيء بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعي الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر وانما يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فقبته في اعناق القائمين عليه الناصبين

أنفسهم منصب الدعوة اليه، أو المعروفين بأنهم من حفظته ورعاة احكامه، وما عليهم في ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به، ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى، ويضعوا عنه أوزار البدع، فترجع اليه قوته، وتظهر للاعمى حكمته

« ربما يقول قائل ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأي القائلين باهمال العقل بالمرة في قضايا الدين وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة ان تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه ان يقال لما كان الدين علماً يهتدى به وانما الذي سبق تقريره هو ان العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد الهي كما لا يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا . كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال . كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها الى معرفتها وانها آتية من قبل الله ؟ وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي ان يصدق بجميع ما جاء به وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد فان ذلك مما تتنزه النبوات عن ان تأتي به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل ان يعتقد ان الظاهر غير مراد وله الخيار

بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ماجاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض الى الله في علمه، وفي سلفنا من التاجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثاني» اه

ايران

كتبنا في العدد السالف نبذة وجيزة في مشاكل الدول ومنها مسألة الوزارة في فرنسا وايطاليا وسكتنا عن وزارة ايران التي أخبرنا البرق من مدة باستقالة رئيسها «الصدر الاعظم» ولما يرد نبأ آخر بتعيين غيره وقد انتهت المشكلة في فرنسا وايطاليا وتشكلت الوزارة كما ترى في الاخبار البرقية . وقد علمنا من الانباء الخصوصية ان الازمة في بلاد ايران على أشدها فان شركة أجنبية «انكليزية» تطلب من الحكومة الايرانية امتيازاً بحصر التنباك وقد أحدث هذا الطلب هزة في البلاد الايرانية أوجس منها المرشحون للصدارة العظمى خيفة من قبولها وتحمل تبعة التصديق على الامتياز المطلوب امام الامة التي أشعرها جميعها بعظيم ضرره ما كان من أمره في أواخر عهد الشاه ناصر الدين السابق (رح)

طلب هذا الامتياز يومئذ وأقرت عليه الحكومة الايرانية لما كان من عوج وزيرها الاول وضلعه مع انكلترا فنبه بعض العقلاء الناصحين ورئيس العلماء الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي (رح) الملقب بحجة الاسلام لمضار هذا الامتياز وانه نافذة للتداخل الاجنبي الذي يذهب باستقلال البلاد وطلب الناصح من الحجة ان يفتي بتحريم التدخين المستلزم ترك زراعة التنباك فافتى وكان ذا نفوذ روحي عظيم فاضطربت لفتواه بلاد العجم كلها